بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة: بقلم فضيلة الشيخ سليمان المدني

الحمد لله على عميم نعمه وله الشكر على هواطل ديمه. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد وآله الميامين وصحبه الطيبين.

يقول ابن قتيبة الدينوري في كتابه القيم أدب الكاتب ان مما يخطأ الناس في استعماله لفظ المأتم، يذهبون انه المصيبة فيقولون كنا في مأتم والصحيح ان يقولوا كنا في مناحة، وانما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر، ويستشهد على ذلك بقول أبي حية النميري:

رمته أناة من ربيعة عامر نؤوم الضحى في مأتم أي مأتم

أي في نساء أي نساء

وهذا البيت لو قبلناه بالمعنى الذي ذكره الدينوري لكان معنى المأتم جماعة النساء، لا موضع اجتماع النساء. على أن لفظ المأتم هنا لا يدل على ما ذهب اليه صاحب أدب الكاتب بالخصوص ، فالشاعر يقول إن هذا الدنف مصاب برمية من المرأة ونية في القيام ربما لعظم جسمها أو عظم كفلها - فإن ذلك مما يزين المرأة عند العرب[1] - وأنها مترفة مخدومة تنام في الضحى لعدم حاجتها للسعي والحركة وكانت هذه الواقعة في مأتم مشهود.

واللقاء بالمرأة لا يلزم أن يكون في الأفراح حتى يصح أن يحمل على أن هذا الاجتماع كان في مجلس أنس ، والحب والعشق يدخل القلوب في أي وقت وزمان، على أن الإستعمال أعم من الحقيقة والمجاز، والقضية لا تصلح لإثبات موضوعها.

ونحن نميل مع ابن الأنباري في أن المأتم يطلق على الرجال والنساء ، وربما كان في الأصل موضوعا لمطلق التجمع والتحلق كما يفهم من قول الراجز:

حتى تراهن عليه ثيما كما ترى حول الأمير المأتما

ثم استعمل في الإجتماع للمصيبة خاصة واكتسب بكثرة الإستعمال وضعا جديدا، فلا

١- قال الأعشى في معلقته يصف محبوبته:

يكاد يمسكها لولا تشددها اذ تقوم إلى جارات الكفل

يكون استعماله في المصيبة من استعمال اللفظ في غير موضعه.

على أن اللفظ الذي يقترحه الدينوري وهو لفظ النياحة أو المناحة ليس خاصا في أصل وضعه بالمصاب والعزاء فالتناوح في اللغة معناه التقابل، وأطلق على مجلس المصيبة أسم المناحة لأن المجتمعين فيه في الغالب يتناوحون أي يتقابلون، فلا مرجح لأخذ هذا اللفظ في الدلالة على المصيبة دون ذاك ولا داعي لتخطئة العامة في اختيارهم ما دام لا دليل على انحصار لفظ المأتم بالنساء، على أن النقل والتعميم في الإستعمال بالمناسبة جائز عند العرب.

وإذا عرفنا أن المأتم إنما هو المكان الذي تقام فيه المصيبة والنواح بين المصابين، فكل نوح وبكاء على المصاب يصح أن يسمى مأتما حتى لو كان النائح فردا واحدا، بخلاف المناحة أو النياحة التي أخذ التقابل في مفهومها حتى عند الدينوري[1] فلا بد فيها من التعدد ولا يصح أن يقال أقام فلان نياحة لفلان إذا لم يشركه فيه غيره.

وإذا عرفت هذا فإطلاق لفظ المأتم على البناء القائم الذي تقام فيه التعازي والأفراح ليس إطلاقا حقيقيا وإنما هو إطلاق مجازي يصح بمساعدة القرائن الحالية المعلومة بين المتخاطبين أو المقالية، ولم يطلق هذا اللفظ على الموضع الذي تقام فيه تعازي الحسين في البحرين ولا في العراق بل يطلقون على ما يشيدونه من الأبنية التي يعدونها لإقامة المناسبات المتعلقة بأهل البيت أسم الحسينيات ومفردها حسينية، فيقال مثلا في البحرين حسينية بن رجب أو حسينية بن زبر أو غير ذلك كما يقال في النجف الأشرف حسينية الششترية نسبة إلى أهل ششتر الذين أسسوها.

فلفظ المأتم أعم من الحسينية من جهة وأخص منه من جهة أخرى، أعم من الحسينية لأنه يطلق على كل مجلس أقيم للمصاب سواء أقيم في الحسينية أو البيت أو الطريق أو المسجد.

وأخص من لفظ الحسينية لأن الحسينيات لم تؤسس من أجل اقامة النوح والبكاء فقط بل أسست من أجل أغراض كثيرة من إقامة الإحتفالات بمواليد النبي صلى الله عليه وآله

١- قال الدينوري في كتابه ادب الكاتب صفحة ٢٠ - ٢١ ما نصه.

والصحيح أن يقولوا كنا في مناحة، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء يقال الجبلان يتناوحان إذا تقابلا، وكذلك الشجر وقال الشاعر.

عشية قام النائحات وشققت ... جيوب بأيدي مأتم وخدود

وهذا البيت لمرزوق السندي المعروف بأبي عطاء من كلمة يرثى بها ابن هبيرة عندما قتله المنصور. وهو كما ترى مولد فلا يكون حجة في استعمال لفظ المأتم بنعت النساء.

وأهل بيته ولإقامة حفلات الزواج وغيرها من الاجتماعات بالإضافة إلى استعمالها من أجل إقامة التعازي مطلقا سواء للمعصومين أو غيرهم من الأموات.

وقد كان الناس في الأزمان القديمة يقيمون التعازي في بيوتهم ثم أخذوا يقيمونها في المساجد نظرا لأنهم ينوون بإقامتها القربة الى الله تعالى، ثم رأوا أن الحاجة ماسة لإيجاد أمكنة تصلح لدخول كافة الناس من المسلمين وغيرهم خاصة وأن الشيعة لا يجيزون دخول الكفار الى المساجد حتى لو كانوا من أهل الكتاب، فأخذوا في تشييد الحسينيات، وربما مضى على تأسيس الحسينيات في البحرين أكثر من أربعة قرون.

أما إقامة مأتم الحسين عليه السلام فالظاهر من الروايات التي اتفق عليها أهل السنة والشيعة أنه ابتدأ من حين ولادة الحسين عليه السلام، وأن النبي صلى الله عليه وآله هو من أقام المأتم على الحسين عليه السلام من يوم ولادته ثم أخذ يعيد إقامته في كل مناسبة خاصة يوم عاشوراء ، وإليك بعض الروايات التي وردت في كتب غير الشيعة بذلك:

أخرج الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي في خبر طويل قال: «أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد المفسر ، أخبرنا أبو بكر محمد ابن عبدالله الحفيد، حدثنا أبو القاسم عبدالله بن أحمد بن عامر الطائي بالبصرة حدثني أبي حدثني علي ابن موسى، حدثني أبي موسى إبن جعفر. حدثني أبي جعفر ابن محمد، حدثني أبي محمد ابن علي حدثني ابي علي ابن الحسن قال حدثتني أسماء بنت عميس، قالت قبلت جدتك فاطمة بالحسن والحسين فلما ولدت الحسن . الحديث بطوله حتى قولها:

«فلما ولد الحسين فجاءني النبي صلى الله عليه وآله فقال يا أسماء هاتي ابني فدفعته اليه في خرقة بيضاء ، فأذن في أذنه اليمني، وأقام في اليسرى ، ثم وضعه في حجره وبكى، قالت أسماء فقلت فداؤك أبي وأمي مم بكاؤك؟ قال على إبني هذا، قلت إنه ولد الساعة، قال يا أسماء تقتله الفئة الباغية لا أنالهم الله شفاعتي ثم قال يا أسماء لا تخبري فاطمة بهذا فإنها حديثة عهد بولادة[1].

وأخرج الحافظ النيسابوري في المستدرك قال «أخبرنا أبو عبدالله محمد بن علي الجوهري ببغداد ، ثنا أبو الأحوص محمد ابن الهيثم القاضي، ثنا محمد بن مصعب، ثنا الأوزاعي، عن أبي عمار شداد بن عبدالله عن أم الفضل بنت الحارث ، أنها دخلت على

١- انظر مقتل الحسين للحافظ ابو المؤيد الخوارزمي ج١ ص ٨٧ ٢ ص ٨٨ فقد رواه بإسناده عن البيهقي.

ورواه ايضا الحافظ محب الدين الطبري في ذخائر العقبي ص ١١٩ نقلا عن مسند الإمام الرضي عليه السلام ولزيادة التفصيل فيما وقع يوم مولد الحسين عليه السلام وإقامة المأتم عليه من قبل الرسول (ص) راجع ما أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ الشام ترجمة الحسين السبط عليه السلام.

رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: «يا رسول الله (ص) إني رأيت حلما منكرا الليلة، قال وما هو قالت إنه شديد ، قال: ما هو قالت: رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري، فقال رسول الله (ص) : رأيت خيرا، تلد فاطمة إن شاء الله غلاما فيكون في حجرك ، فولدت فاطمة (ع) الحسين (ع) فكان في حجري كما قال رسول الله (ص) ، فدخلت يوما إلى رسول الله (ص) فوضعته في حجره ، ثم حانت مني التفاتة فإذا عينا رسول الله (ص) تهريقان من الدموع ، فقالت: فقلت يا نبي الله (ص) بأبي أنت وأمي ما لك قال: أتاني جبرئيل فأخبرني أن أمتي ستقتل إبني هذا. فقلت هذا؟ فقال نعم، وأتاني بتربة من تربته». قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1].

ويبدو أن إقامة المأتم عند رسول الله (ص) استمرت في كل مناسبة وخاصة في يوم موعد ولادة الحسين عليه السلام من كل عام فقد ذكر أبو المؤيد الخوارزمي الحنفي في مقتله من رواية طويلة قال فيها: «ولما أتي على الحسين (ع) من ولادته سنة كاملة هبط على رسول الله (ص) وآله إثنا عشر ملكا محمرة وجوههم، قد نشروا اجنحتهم وهم يقولون: يا محمد سينزل بولدك الحسين ما نزل بهابيل من قابيل ، وسيعطى مثل أجر هابيل، ويحمل على قاتله مثل وزر قابيل، قال ولم يبق في السماء ملكا الا نزل على النبي يعزيه بالحسين، ويخبره بثواب ما يعطى ويعرض عليه تربته والنبي (ص) يقول: اللهم أخذل من خذله وأقتل من قتله ولا تمتعه بما طلبه.

ولما مضت على الحسين من مولده سنتان كاملتان خرج النبي (ص) في سفر فلما كان في بعض الطريق وقف فاسترجع ودمعت عيناه، فسئل عن ذلك فقال: هذا جبرئيل يخبرني أن أرضا بشاطيء الفرات يقال لها كربلاء يقتل فيها ولدي الحسين بن فاطمة، فقيل من يقتله يا رسول الله (ص) قال رجل يقال له يزيد ، لا بارك الله في نفسه، وكأني أنظر إلى منصرفه ومدفنه بها، والله ما ينظر أحد إلى رأس ولدي الحسين فيفرح إلا خالف الله بين قلبه ولسانه - يعني ليس في قلبه ما يكون بلسانه من الشهادة - قال ثم رجع النبي من سفره ذلك مغموما فصعد المنبر فخطب ووعظ والحسين (ع) بين يديه مع الحسن (ع) فلما فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسين ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني محمد عبدك ونبيك وهذان أطائب عترتي، وخيار ذريتي وأرومتي، ومن أخلفهما بعدي، اللهم وقد اخبرني جبرئيل (ع) بأن ولدي هذا مقتول مخذول اللهم فبارك لي في قتله،

١- انظر المستدرك للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ١٧٦ ، وذكره ايضا في ص ١٧٩ قال حدثنا ابو العباس محمد بن يعقوب ثنا محمد بن إسحاق الصنعاني ثنا محمد بن اسماعيل بن ابي سمينة ، ثنا محمد بن مصعب ثنا الأوزاعي ان ابي عمار عن ام الفضل قالت قال لي رسول الله (ص) والحسين في حجره إن جبرئيل (ع) اخبرني ان امتي تقتل الحسين (ع) فقال قد اختصر ابن ابي سمينة هذا الحديث ورواه غيره عن محمد بن مصعب بالتمام.

واجعله من سادات الشهداء إنك على كل شيء قدير، اللهم ولا تبارك في قاتله وخاذله. قال وضج الناس في المسجد بالبكاء، فقال النبي (ص) أتبكون ولا تنصرونه؟ الله فكن أنت له وليا وناصرا[1].

ولقد استمر الرسول صلى الله عليه وآله يكرر إقامة المأتم على سبطه الحسين، في كل مناسبة حيث يأتيه جبرئيل (ع) أو غيره من الملائكة للتعزية فتارة في بيت أم سلمة[2]، (رض) وأخرى في بيت أم المؤمنين عائشة (رض)[3] بل كان صلى الله عليه وآله ينتهز أدنى مناسبة ليقيم المأتم للحسين كلما اجتمع له حشد من الصحابة،[4] فهل بعد كل ما فعله الملائكة الكرام من تعزية الرسول بولده وهو لم يقتل، وما فعله النبي عليه وآله الصلاة

---

١ – انظر مقتل الحسين للحافظ الخوارزمي ج١ ص ١٦٣ وما بعدها.

٢– انظر المعجم للحافظ الطبراني، والمجمع للحافظ الهيمي ج٩ ص ١٨٩ حيث قال ايضا رواه الطبراني ورجاله موثقون وفي بعضهم ضعف.

وقد بين الشيخ عبدالحسين الاميني وجه تضعيف البعض في هذا الإسناد من جهة علي ابن سعيد الرازي المتوفي عام ٢٩٩ هجرية وقال: «إن ضعف رجال الإسناد عند بعض من دون بيان وجه الضعف بعد توثيقهم لا يعبأ به ولا يضر بالحديث كما هو المقرر في اصول الفن.

على ان التضعيف دخل على هذا الحديث عن طريق عليان شيخ الحديث المار ذكره وهو عندهم من اجلا المحدثين الحفاظ لكنه كان يصحب السلطان فعابوا عليه ذلك، ولم يطعنوا في وثاقته وضبطه وصدقه بل اعترفوا له بكل هذا.

على ان هذا المجلس قد رواه ابن عساكر في تاريخ الشام عن ام المؤمنين ام سلمة (رض) بإسناد آخر وإن كان بصورة اكثر ايجازا مما رواه الطبراني والهيمي.

وذكر هذا المأتم ايضا في ذخائر العقبي ص ١٤٧، وطرح التريب ج١ ص ٤٢، ومجمع الزوائد ج٩ ص ١٨٩، والمواهب اللدنيةج ٢ ص١٩٥ ، والخصائص الكبرى ج٢ ص ١٢٥ ، وجوهرة الكلام ص ١٢٠

وهناك مأتم آخر اقيم في بيت أم سلمة (رض) حيث عزى ملك المطر النبي (ص) بالحسين (ع) اخرجه الإمام احمد بن حنبل في المسند ج٣ ص ٢٤٣ ،صفحة ٢٦٥ بطريقين مختلفين عن عمارة بن زاذان عن انس بن مالك (رض) عن أم سلمة (رض) وأخرج هذا المأتم الحافظ أبو نعيم في الدلائل ج٣ ص ٢٠٢. وأخرجه الطبراني في الجزء الأول من المعجم الكبير في ترجمة الحسين عليه السلام، والبيهقي في دلائل النبوة في باب اخبار رسول الله (ص) بقتل الحسين (ع) وابن عساكر في تاريخ الشام ج٤ ص ٤١ والطبري في ذخائر العقبي ص ١٤٦ – ١٤٧ والهيمي في المجمع ج٩ ص ١٨٧ – ص ١٩٠ وابن حجر في الصواعق ص ١١٥ عن البغوي في معجمه ، وقال وأخرجه أبو حاتم في صحيحه، وروى أحمد نحوه وروى عبد بن حميد وابن أحمد نحوه.

٣– اخرجه الطبراني في المعجم في ترجمة الحسين السبط، والماوردي في اعلام النبوة ص ٨٣، وابن عساكر في تاريخ الشام الى ترجمة الحسين (ع) ويوجد في مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٨٧ – ١٨٨ ، والصواعق ص ١١٥، والخصائص للسيوطي ج٢ ص ١٢٥ وكنز العمال ج ٦ ص ٢٢٣ وجوهرة الكلام ص ١١٧.

ولا يخفي على المتتبع ان إقامة المأتم في بيتي أم سلمة وعائشة رضي الله عنهما قد تكرر كثيرا.

٤– انظر في هذا الشأن الحافظ ابن ماجة في السنن الصحيح ج٢ ص ٥١٨ ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ج٤ ص ٤٦٤ ، وأبو نعيم الإصبهاني في اخبار إصبهان ج ٢ ص ١٢.

والسلام من البكاء على الحسين ونعيه لأهله وأصحابه وهو لا يزال وليدا وطفلا يلام محبو الرسول ، وأهل بيته على تكرار إقامة العزاء والمأتم على ريحانة الرسول وقد فريت أوداجه بسيوف البغي ، ورض جسده الشريف بحوافر خيول العدوان والظلم، وانتهب ثقل رسول الله (ص) وسبيت بناته، أم يبقى مساغ لمغرض أو جاهل أن يتهم شيعة آل محمد بالغلو والبدعة، اللهم الا أن يكون من أتباع بني أمية الذين لا يزالون يقدسون يزيد العهر والخمور ويعدونه من ضمن امراء المؤمنين ومثل هؤلاء لا كلام لنا معهم لأنهم فاقدون قابلية الرجوع الى الحق والإنصياع للدليل.

وهذا الكتاب الذي وضعه الشاب النابه عبدالله سيف في تأريخ بعض الحسينيات، وبيان بعض طرق الردات والأشعار التي تقال عادة في المواكب الحسينية من امتع ما كتب في بابه وإن كان لم يتناول جميع الحسينيات الموجودة في البحرين فضلا عن احصاء المأتم التي تقام سنويا على ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وفق الله المؤلف وجزاه عن تأريخ وطنه خيرا.

سليمان نجل العلامة المقدس الشيخ محمد علي المدني
جد حفص - البحرين
بتاريخ الأول من شهر جمادي الأول عام ١٤١٥